جامــعة واســط
مجلـــــة كليـــــة التربيـــة

العـدد الحادي والأربعون
الجزء الرابع /تشرين الثاني/٢٠٢٠

المُحقّق الكَرَكيُّ (ت٩٤٠ هـ) قراءة في دورهِ السياسي

م. د. علي فاروق الحبوبي
كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة كربلاء
farouqali306@gmail.com

ملخص البحث:

تسعى الدراسة الى قراءة خِطاب سياسي ديني أنتجَهُ عالِمٌ بارزٌ من عُلماء المذهب الشيعي هو (المُحقق الكركي)، في حقبةٍ تاريخيةٍ عُرفت بتقلُّباتٍ وتحولاتٍ وتبدُّلاتٍ سياسية، غيَّرت خارطةَ المنطقة الشيعية آنذاك، تمثَّلت بِحقبة تأسيس الدولة الصفوية إبان القرن العاشر الهجري، وقد حاولت هذه الدراسة ان تُسلط أضواءً جديدة على نشاط هذا الرجل السياسي للكشفِ عن دورهِ في تأسيس خِطابٍ مُعتدلٍ لمذهبٍ تَبَنّت الدولة الصفوية نشرَهُ في بلاد فارس، وقد انقسمت الدراسة على مبحثين اعتنى الأول منهما بقراءة النشاط السياسي للمُحقق الكركي، في عهد الشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية، وقد كشفَ هذا المبحث عن ضيق أُفق هذا النشاط بسبب عدم منح الشاه إسماعيل الصفوي صلاحيات مُطلقة للكركي في تنظيم الشؤون السياسية، واقتصارِ صلاحياتهِ في الشؤون الاجتماعية والدينية، واشتغل المبحث الآخر على قراءة الدور السياسي للمُحقق الكركي في عهد الشاه طهماسب الصفوي، وقد بيَّن سِعة النشاط السياسي، واتساع رُقعة المساحة التي كان يتحرك فيها الكركي سياسياً، لاسيما بعد ان منحهُ رأس السُلطة آنذاك الشاه طهماسب صلاحياتٍ مُطلقة من خلال إصدار مراسيم سُلطانية رسمية، تمتع بعدها الكركي بِسُلطة اجتماعية دينية سياسية هيمنت على مناطق بلاد فارس كُلِها.

Abstract:

This study seeks to read a religious political rhetoric produced by a prominent scholar of the Shia sect (the investigator al-Karaki) in a historical period known by the transformations and political changes that changed the map of the Shia region, represented by the era of the establishment of the Safavid state during the tenth century AH. New to the activity of this political man to reveal his role in establishing a moderate discourse of a doctrine that was adopted by the Safavid state and spread in Persia. The study was divided into two topics, the first one is interested in reading the political activity of

the Karaki investigator during the reign of Shia Ismail al-Safawi, founder of the Safavid state. And religious, and the other topic worked on reading the political role of the Karaki investigator during the reign of Shia Tahmasb al-Safawi, and he showed the breadth of political activity and the expansion of the area in which the Karaki investigator used to move politically, especially after the head of power at the time, Tahmasb, granted him absolute powers through the issuance of official royal decrees that he enjoyed after The investigator al-Karaki had a socio-religious and political authority that dominated all the regions of Persia.

المقدمة:

تُمثلُ الشخصيات التاريخية المُكتسِبة للعَلَمية بؤرَ إشعاعٍ مؤثرة في ماضي الأمة التي نبغت بها وحاضرِها، فحركتُها في ماضيها حركةٌ حيةٌ فاعلةٌ غيرُ مُنقطعة، وحركتُها في حاضرِها حركةٌ رمزيةٌ مُتأتيةٌ من اكتساب تلك الشخوص بُعداً رمزياً فاعلاً ومؤثراً في حركة الأجيال الحاضرة، عِبرَ توظيف ما سجلتهُ تلك الشخوص من صفحاتٍ مُشرقةٍ في ماضيها، ومن بين أهم هذه الشخصيات التي أثَرت في عجلة مسيرة مذهب آل البيت الكرام عليهم السلام المُحقق علي بن الحُسين بن عبد العالي الكَركي المشهور بـ(المُحقق الثاني)*، الذي كان أثرهُ واضحاً في الميادين الفكريةِ والدينيةِ والسياسيةِ كافة،

* هو علي بن الحسين بن علي بن محمد بن عبد العالي الكركي نسبةً الى (كرك نوح) التي كانت يومئذٍ مركزاً عملياً إسلامياً مهماً، وهي اليوم قرية صغيرة في ضواحي مدينة زحلة الواقعة في جنوبي جبل لبنان المطل على سهل البقاع، وقد ولد بها سنة (٨٧٠هـ) على أرجح الأقوال، وتوفي في مدينة النجف الاشرف سنة (٩٤٠ هـ) على الارجح ايضاً، وله مُصنفات عدة أهمها الرسالة الجعفرية والرسالة الخِراجية ورسالة التُحفة الرضوية في شرح الجعفرية وغير ذلك. للاستزادة في ترجمتهِ يُنظر: الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي(ت١١٠٤هـ)، امل الامل، تحقيق السيد أحمد الحُسيني،ط٢، (بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٩٨٣)،ج١،ص١٢١-١٢٢؛ الميرزا عبد الله افندي الاصبهاني(ت١١٣٠هـ)، رياض العلماء وحياض الفضلاء، تحقيق السيد احمد الحُسيني، باهتمام السيد محمود المرعشي، (قُم المُقدسة: منشورات مكتبة اية الله العظمى المرعشي النجفي، ١٤٠٣هـ)، ج٣، ص٤٤١-٤٦٠؛ العلامة المُحقق الشيخ يوسف البحراني(ت١١٨٦هـ)، لؤلؤة البحرين في الاجازات وتراجم رجال الحديث، حققهُ وعلق عليه العلامة الكبير السيد محمد صادق بحر العلوم، (البحرين: مكتبة فخراوي، ٢٠٠٨)، ص١٤٦-١٤٩؛ العلامة المُتتبع الميرزا محمد باقر

والذي نالَ عِنايةً فائقةً من لدُن أصحاب التراجم والطبقات قديماً، والباحثين الأكاديميين حديثاً، إلا أن التركيز كان منصباً على حياتهِ وآثارهِ العلمية، كما فعل محمد الحسون في كتابهِ: (المُحقق الكركي وآثاره)، ولم نجد ـ في حدودِ علمِنا فيما يخصُ ميدان البحث الاكاديمي ـ عِنايةً واسعةً ببعض الجوانب المهمة من حياة الكركي، وهو الجانب السياسي، ذي الأهمية المركزية في نشوءِ دولةٍ واسعةٍ لها أثرٌ فاعلٌ في تاريخ المنطقة العربية، ألا وهي (الدولة الصفوية) إلا بحثاً واحداً موسوماً بـ (المُحقق الكركي وعلاقتهُ بالدولة الصفوية في عهد الشاه إسماعيل الصفوي١٥٠١-١٥٢٦) للباحث أسعد حميد أبو شنه (أبو شنة، ٢٠٠٦، ٢٥٥-٢٥٧)، وهو بحثٌ ركّز على جُزئية من جزئيات النشاط السياسي وهي (العلاقة)، فضلاً عن أنه ذهبَ في سياق تكرار دراسة حياة الكركي التي لا جديد فيها، وتَشعبَ في ذكرِ أمورٍ قد تُخرجُ البحث عن إطارهِ كدراستهِ للتصوف وخوضهِ في التسمية وسببِها والنشأةِ والاصل وبعض الطرق الصوفية كالبكتاشية والنقشبندية وهي أمورٌ قد تُبعدُ البحث عن تحقيقِ أهدافهِ المُحددة في العنوان، ألا وهي علاقة الكركي بالدولة، وقد أدَّى ذلك إلى أن يتقلص الحجم الذي خصصهُ الباحث للكشف عن علاقة الكركي بالدولة الصفوية فيصل إلى بضع صفحات، فضلاً عن ان البحث قد سلطَ الضوء على شيء من علاقة الكركي بالدولة الصفوية، لانه اختص بدراسة هذه العلاقة في عهد الشاه إسماعيل الصفوي ولم يتطرق إلى النشاط السياسي للكركي في عهد الشاه طهماسب ابن إسماعيل الصفوي، وهو العهد الذهبي لنشاط الكركي السياسي.

ولكلٍ مما تقدم فإن هذه المآخذ قد فتحت لنا المجال لأن نُحاولَ أن ندرُس البعد السياسي في نشاط الكركي، ونُقدم قراءةً جديدة للدور السياسي الفاعل الذي قام بهِ وانعكست آثارهُ على البُعد العقائدي

الموسوي الخوانساري الاصبهاني(ت١٣١٣هـ)، روضات الجنات في احوال العُلماءِ والسادات، تحقيق أسد الله إسماعيليان،(قم المُقدسة: مطبعة مهر استوار قُم، ١٣٩١هـ)،ج٤،ص٣٦٠؛ ثقة المُحدثين الشيخ عباس القُمي(ت١٣٥٩هـ)، هدية الاحباب في ذكر المعروفين بالكُنى والالقاب والانساب، ترجمة الشيخ هاشم الصالحي، تحقيق ونشر مؤسسة نشر الفقاهة، (قُم المُقدسة: مؤسسة النشر الاسلامي، ١٤٢٠ هـ ق/ ١٣٧٩ هـ ش)، ص٣١٨؛ خيرالدين الزركلي، الاعلام، قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمُستعربين والمُستشرقين، ط١٧، (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٧)،ج٤،ص٢٩٩-٣٠٠؛ الشيخ محمد الحسون، حياة المحقق الكركي واثاره،(قُم المُقدسة: مطبعة نكَارش،١٤٢٣هـ)،ج١،ص٢٣-١٣٠؛ وينظر في معنى كرك نوح: شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي(ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، ط٢، (بيروت:دار صادر،١٩٩٥)، ج٤، ص٤٥٣.

المذهبي، وأدى الى ترسيخ مذهب آل البيت في بلاد فارس إبَّان تلك الحقبة، ولأننا نطمح الى تجنُب التكرار، وتقديم الجديد، فقد استبعدنا فقرة ترجمة (الكركي) من مفاصل بحثنا؛ لأنها ستوقِعُنا بترديدِ ما قالهُ الآخرون دونما فائدة، ولأن أولئك الآخرين قد كفونا مؤونة ذلك، لذا سنُركز ـ بدلاً عن ذلك كُله ـ على الموضوع المركزي للبحث وهو (قراءة الدور السياسي للكركي قراءةً جديدة)، تسعى الى ربط ماضي السياسة المذهبية الشيعية، وتُشير إلى أهمية الإفادة من ذلك الماضي، وتطبيقُهُ في الحاضر، من هُنا حاولنا في هذا البحث أن نُقدِّمَ قراءةً تاريخيةً في الدور السياسي لهذهِ الشخصيةِ الفاعلة، في مُحاولةٍ منا لتعريف الأجيال الحاضرة بماضي رموزها السياسي، ولاسيما أصحاب الصبغةِ الدينيةِ الذينَ أثبتوا أن الدين يُمكن أن يكونَ مقياساً نافعاً للسياسي، لقلب وجهة النظر القائلة بأن السياسةَ فن الخداع، فالسياسةُ مع الدين يُمكن أن يُمثلان قوةً فاعلةً لبناء الدولة القوية.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يُقسم على مبحثين أولهُما اختص بدراسة الدور السياسي للمُحقق الكركي إبان عهد الشاه إسماعيل الصفوي، وقد تناولَ مدخلاً عن نشأة الدولةِ الصفوية وبداية اتصال الكركي بها ثم أهم محاور النشاط السياسي لهُ في هذهِ الحقبة، وأما المبحث الآخر فقد اعتنى بقراءة الدور السياسي للكركي في عهد الشاه طهماسب وقد اشتغل عبر تحليل نصَّين إداريَّين سياسيين صدرا عن الشاه طهماسب، وكشفا عن الدور الفاعل للكركي آنذاك، وقد انتهى البحث الى مجموعةٍ من النتائج، كانت الخاتمةُ مكاناً لها.

ان هذا البحث لا يدَّعي لنفسهِ حيازة النُدرة بل هو لا يعدو أن يكون خطوة جديدة في اتجاه قراءةِ جانبٍ من جوانب الكركي المُثيرة، والكشف عن حقائق دخول بعض علماء المذهب في الميدان السياسي، لما تقتضيهِ المصلحةُ العامة، بعد أن كانوا يسيرون بخطواتٍ ثابتة لتأسيس خطابٍ سياسيٍ مُعتدلٍ للمذهب الاماميْ، يتقبل الآخر ويُحاول احتواء أبعادهُ الفكرية، واستمالتهِ عِبرَ الحُجج والادلة، لا بمنطقِ السيف، وهي سياسةٌ وسطيةٌ إرضائيةٌ، رسم معالِمها الكركي، وهي جديرة بالعناية وخليقة بأن توظَّف وتُطبق في زمننا الحاضر، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أولاً. نشاط الكركي السياسي في عهد الشاه إسماعيل (٩٠٧-٩٣٠هـ/ ١٥٠١-١٥٢٤م):

اكتسبت الفترة الصفوية أهميةً خاصة في تاريخ فارس؛ إذ حصلت تغييرات جذرية في المجتمع الفارسي كان لها تأثيرٌ بالغٌ على المنطقة عامةً وبلاد فارس خاصةً، فمع انتشار التشيُّع في ذلك العصر تحول المجتمع الفارسي من الناحية الدينية الى مجتمع ذي صبغةٍ مذهبيةٍ واحدة، وأصبح المذهب أحد عوامل الاستقلال والوحدة الوطنية لفارس، وقد أوجد نفوذ القيم والمبادئ الاعتقادية

الشيعية في ثقافة بلاد فارس مُجتمعاً دينياً أرغمَ السلطات الحاكمة آنذاك على مُراعاة أصل وجود المذهب في أعمالها إلى حد كان التغاضي عنهُ يؤدي في الغالب الى هزيمة الحاكم وفشل سياستهِ، وقد دخلت بذلك مجموعةٌ جديدة إلى ساحة العمل السياسي، وهم العُلماء، عُدّت أهم تشكُّل سياسي بعد مؤسسة السلطة الحاكمة، وقد أدت فيما بعد دوراً مُهماً في الأحداثِ والتحولات داخل بلاد فارس(حسيني زادة، ٢٠٠٥، ١٠). لذا عَدَّ المُستشرق (كليفورد بوزورث): ((العهد الصفوي ذا أهمية قصوى في التاريخ الفارسي، نظراً لأنه العهد الذي ترسخت خلالهُ أركان المذهب الشيعي في إيران، وبهذا الترسيخ اكتسبت الدولة الفارسية معنىً جديداً من معاني التضامن والقومية، مما أمكنها من الاستمرار في العهود الحديثة، مُحتفظةً بروحها الوطنية، ووحدة أراضيها على نحوٍ كاملٍ تقريباً)) (بوزورت، ١٩٩٥، ٣٣٧).

وعلى الرغم من أهمية ما قاله كليفورد بوزورث إلا أننا نختلف معهُ في مصدر العوامل المؤثرة على انتشار التشيُع في بلاد فارس، فهو لم يكن مصدراً داخلياً فحسب، وانما كان مصدراً خارجياً وصل إليها من المناطق المجاورة كالعراق وبلاد الشام، ولاسيما في بداية تأسيس الدولة الصفوية؛ لأن بلاد فارس كانت قبل تأسيس هذه الدولة ذات أغلبية سُنية، وخير دليل على ذلك استعانة ساسة الدولة الصفوية بعُلماء هذه البلاد.

وتعود نشأت الدولة الصفوية الى أسباب مُتعددة أهمها الأسباب السياسية، فقد نشأت على أثر الفوضى العارمة التي شاعت في بلاد فارس، بعد الصراع الذي دارَ بين دولتي (الاق قونيلو والقرة قونيلو)، وقد استطاع الشاه اسماعيل الصفوي في ظلِ هذهِ الفوضى في فترة قياسية جداً من السيطرة على مناطق شاسعة من وسط بلاد فارس وغربِها، بسبب الفوضى التي كانت تعمُّ أنحاء بلاد فارس، وعدم وجود حكومات قادرة على مُنافسة الدولة الصفوية (الزهراني، ٢٠١٦، ٣٧).

وهكذا قامت الدولة الصفوية على انقاض دولة (الاق قونيلو) بعد أن زحف إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية إلى تبريز عاصمتِها، فدخلها واستولى عليها، واتخذها عاصمةً لهُ، وقد فرض بعد ذلك المذهب الشيعي الاثني عشري على سكانها، واضطهدَ مُخالفيه من أهل السُنة، وقتل منهم نحو عشرين الفاً، وأمر بإخراج رؤساء (الاق قونيلو) من القبور وإحراقها، وَتَوَّجَهُ بعد ذلك أعوانهُ ومُريدوه؛ ملكاً على فارس، ولقبوه بأبي المُظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي وذلك في عام (٩٠٧هـ/١٥٠١م) فضرب النقود باسمهِ، وكتب عليها، لا اله إلَّا الله محمد رسول الله علي ولي الله، ثم كتبَ اسمهُ، كما أقام الخِطبة باسمهِ كدلالة على قيام الدولة، ثم فرض المذهب الشيعي الاثني عشري في مُختلف أنحاء فارس وأعلنهُ مذهباً وحيداً وإجبارياً لدولتهِ، ويبدو ـ كما يرى قطوش ـ إن إعلان المذهب الشيعي

الاثني عشري مذهباً رسمياً في بلاد فارس لم يكن في مُعظمهِ إلا من أجل إيجاد إطار إداري شرعي للدولة الجديدة من جهة، وإرضاء لعقائد السكان من جهةٍ أخرى (طقوش، ٢٠٠٩، ٥٤-٥٥)، وهي وجهة نظر مقبولة تدعمُها الحقائق التاريخية، فالمُمارسات الدموية التي قام بها إسماعيل الصفوي تجاه خصومهِ بعيدةٌ عن خطاب الاعتدال الذي أسسهُ الرسول الكريم وآل البيت الكرام، وهذه الوقائع التاريخية دليلٌ قاطعٌ على أن إسماعيل الصفوي قد اتخذ من شعارات مذهب آل البيت عليهم السلام غطاءً شرعياً يسيرُ في ضوئهِ ظاهراً ويُخالفهُ باطناً، لذا سنجد ردة الفعل والمُعارضة القوية التي أبداها الكركي تجاه سياسة إسماعيل الصفوي في فرض التشيُع بالقوة وتصفية المُعارضين من المذاهب الأخرى.

وقد إستمر الزحف العسكري لإسماعيل الصفوي بعد استيلائهِ على تبريز واتخاذها عاصمةً لهُ، فاتجه نحو اصفهان ويزد وكرمان وجنوبي خُراسان سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) واستولى عليها جميهاً، ثم وسعَ رقعة تحركهِ واحتل بغداد سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م) وقضى بذلك على حُكم أسرة (الاق قونيلو) قضاءً نهائياً، وذهب في أوائل رجب لزيارة العتبات المُقدسة في مدينتيْ النجف الاشرف وكربلاء المُقدستين ثم عاد الى فارس، وفي سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) احتلَّ بلاد ما وراء النهر، وبعد ذلك بسنتين تقدمَ ليُهاجم الدولة العثمانية إلا أنهُ هُزمَ أمام السلطان سليم في وقعة جالديران سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) وأخيراً مات الشاه إسماعيل في ليلة الإثنين الثالث عشر من شهر رجب سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٤م) وهو شابٌ في الثامنة والثلاثين من عُمرهِ مُتأثراً بهزيمتهِ في معركة جالديران، ولكنهُ خلال السنوات الاربع والعشرين التي حكم فيها بنى مملكةً قويةً ضمت أذربيجان والعراق وخراسان وفارس وكرمان وخوزستان، وخطّ لبلدهِ مسلكاً جديداً مبنياً على أساس التوحيد والتشيُع الإمامي ظهرت نتائجهُ الحقيقية فيما بعد، فبدأ بهذين الإنجازين بيان هوية فارس التي لا تزال مُستمرة حتى اليوم الحاضر (الحسون، ١٤٢٣، ٣٥٤-٣٥٦).

إن أهمية دور الشاه إسماعيل الأول تكمنُ في أنه وضع أُسسَ دولةٍ ارتكزت على قواعد مذهبية وسياسية واقتصادية وإدارية متينة، عمّرت أكثر من مائتي سنة، وأوصل حدود فارس الى ما كانت عليه ايام الساسانيين، فشملت بالإضافة الى فارس: العراق وخوزستان وكرمان وخراسان وقسماً من بلاد ما وراء النهر، وضمت في وقتٍ من الاوقات ديار بكر ومرو وبلخ وقندهار، وفرض المذهب الشيعي الاثني عشري في البلاد، وصبغَ حضارة بلاد فارس بِصبغة خاصة لا تزال آثارُها ليومنا هذا (طقوش، مصدر سابق: ٨٦).

ولا شك في أن هذه الانجازات لم تكن لتُنجز بمنطق السيف فقط، وإنما تحتاج كُل سُلطة قوية الى منظومة فكرية ومذهبية تستقي منها قواعد وقوانين حُكم الرعية، وان كانت بطريقة سطحية ظاهرية، لذا نجدُ أن الشاه إسماعيل الصفوي قد فَطِنَ الى قوة الفكر ودورهِ في استكمال مشروعهِ التوسعي، وبناء دولتهِ الكبيرة، مما دفعهُ للّجوء الى بناء منظومة مذهبية عقائدية أسهمت في ترسيخ مذهب دولتهِ عِبرَ توجيههِ الدعوات للعُلماء الذين يعتنقون المذهب الذي ارتضاه، وهو المذهب الشيعي، فعمِدَ الى توجيه دعوات الى كبار عُلماء الشيعة في مركز التشيُع العلمي، وهي الحوزة العلمية في النجف الاشرف ومنهم الكركي الذي كان في العراق إبان تأسيس إسماعيل لدولتهِ.

لقد قررَ الكركي الهجرةَ من لبنان الى العراق والبقاء في مدينة النجف الأشرف حاضرة العالم الاسلامي، ومقر الحوزة العلمية، إذ وصلَ اليها في أواخر سنة (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، واستقر فيها، وبدأ نشاطهُ العلمي في أوائل سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) عِبر تدريس تلامذتهِ وتربيتِهم، وطرح مسائل فقهية جديدة، لم تألفها الأوساط العلمية في حوزة النجف الأشرف آنذاك، كمسألة الخِراج وصلاة الجُمعة والسجود على التُربة، ومسائل عِدة في الرِضاع، ولا شك من أن وجود الكركي في العراق في تلك الحِقبة جعلهُ أقرب الى الأحداث التي كانت تضجُ بها فارس، ولا ريبَ في ان المراكز الشيعية العريقة في العراق ولبنان كانت تُراقب عن كثب نمو الدولة الصفوية الشيعية بِرضىً، ولكن المُلاحظ على هذا الموقف أنه لم يتحول إلى مُبادرة تُسهم إسهاماً حقيقياً وفاعلاً في رسم الطريق للمذاهب والمواقف في الاتجاه السياسي الذي سلكهُ إسماعيل نفسه (الحسون، مصدر سابق: ٤٠١).

ويغلب على ظن الباحث أن تريُث عُلماء الشيعة العرب في العراق ولبنان وعدم تدخُلهم المُباشر ومُبادرتهم بالذهاب الى الدولةِ الصفوية كان يعود إلى سببن: الأول: الاختلاف العِرقي والقومي بينهم وبين مؤسسي الدولة الجديدة، وهو اختلاف يسحبُ معهُ اختلافات كثيرة منها طريقة التفكير، وعُمق التجربة المذهبية عند العرب، وحداثتِها عند فارس، والآخر: حداثة سن الدولة الصفوية إذ كانت في طور النشأة مما يجعلُها غير مُتضحة المعالم ذات خِطاب سياسي ضبابي، ومن هُنا كان تعامل العلماء الشيعة تعاملاً ذكياً، إذ أنهم كانوا يُراقبون عن كثب تغير الأحوال السياسية السريعة، وينتظرون وضوح الخطوط الرئيسة للخِطاب السياسي الذي رسمَ ملامحهُ الشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولةِ الصفوية.

لقد كان الكركي مُطّلعاً عن قُرب على ما يجري من أحداث في المنطقة، ولا سيما في فارس والعراق في الوقت الذي كان فيه الصفويون قد أعلنوا التشيُع مذهباً رسمياً للدولة في فارس، وقد سعوا بإصرار الى نشرهِ والترويجِ له، وقد تفاعلَ الكركي بإيجابية مع الحدث الجديد، ومن المُحتمل أنه قد بقيَ على

تواصل مع هذا الامر حتى سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م) وهي السنة التي احتل فيها إسماعيل الصفوي العراق، والتي قد وجه فيها الدعوة الى عُلماء الشيعة في العراق وجبل عامل للمجيئ الى فارس والعمل على الترويج لمذهب التشيُع هُناك (حُسيني زادة، مصدر سابق: ٧٠).

كان العراق في الوقت الذي دخلهُ الكركي سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) خاضعاً للدولة العثمانية، وبقيَ كذلك حتى اجتاحتهُ جيوش الدولة الصفوية، حين دخل الشاه إسماعيل الصفوي بغداد في الخامس والعشرين من شهرِ جُمادى الآخرة سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م)، وذهبَ الى أوائل رجب لزيارة العتبات المُقدسة في مدينتيْ النجف الاشرف وكربلاء المُقدسة، ثم غادر الى فارس، وهُنا يتبادر الى الذهن سؤال: هل اجتمع الشاه إسماعيل الصفوي بالكركي عند زيارته لمدينة النجف الاشرف؟ ولاسيما أن من المعروف تأييد الكركي للدولة الصفوية، ومن المعلوم ايضاً ان الشاه إسماعيل بعد أن أعلن مذهب آل البيت مذهباً رسمياً للبلاد دعا عُلماء النجف للتوجه إلى فارس والعمل على نشرِ تعاليمِ هذا المذهب، فهل طلب الشاه في هذا الاجتماع _على فرضِ حصولهِ_ من الكركي التوجه الى فارس، وعلى أيةِ حال _ بحسبِ تعبير الحسون _ سواء اجتمع الرجلان أم لا، فان هُناك عدة مؤشرات تدلُ على رابطة حسنة بين الكركي والدولة الصفوية في هذهِ المرحلة، وخاصة إن شعار الشاه إسماعيل الصفوي وأنصارهِ في أول معركة خاضوها (الله الله عليٌ وليُ الله)، ويبدو أنه أراد بهذا الشعار أن يُصرح بهوية الدولة الجديدة (الحسون، مصدر سابق: ٤٠٢).

وعلى الرغم من أن اثبات هذا اللقاء لا يُمكن إلا بعد العثور على وثائق تاريخية، إلا أن افتراض وجودهِ يشي بأهمية الحوزة العلمية في النجف الأشرف آنذاك للشاه، بوصفها مركزاً فكرياً، وبؤرةً تدورُ عليها مفاصل المذهب الذي أسس الشاه إسماعيل الصفوي عليه دولته، وليس من المُستبعد ان يكون قد اجتمع بعلماء الشيعة هناك، وطرح مشروعه في توحيد فارس وماحولها تحت راية المذهب الشيعي، فمن غير المعقول ان يكون قد زار النجف وهو بأمس الحاجة الى العقل الفكري المُدبر الذي يعرفُ مداخل المذهب ومخارجهِ ويكون قد أغفلَ اللقاء بعُلمائِها وأخذ المشورة منهم بل ومُفاتحتهم بالاستعانة بهم لنشر التشيُع في فارس.

إن المستوى المتواضع الذي حققهُ التعليم الشيعي في فارس حتى هذه الفترة يُمثِّلُ اقصى ما تُعطيه إمكاناتِها الذاتية بِفُقهائها المحلِّيين، لكن الأحداث كانت تفرضُ تحرُّكاً أكثر جدوى، ولا سيما إن هذه الدولة الناشئة أصبحت تُمثِّل العدو الوحيد للدولةِ العثمانية الأمبراطورية الشاسعة الأطراف والتي تدعي بأنها المُمثل الوحيد للسلف مذهبياً في العالم الاسلامي كُله، وهي التي اقامت بناءً سياسياً راكزاً قائماً على مبدأ الخلافة.

وهنا بدا أن كل شيء في هذه الدولة الناشئة كان متوقفاً على مَددٍ فكريٍ يأتي من الخارج وهذا ما يُفسر توجيه الشاه إسماعيل الصفوي النداء تلو النداء لعلماء النجف الأشرف للتوجه إليه، والعمل على ترسيخ قواعد المذهب في دولتهِ الفتية، ونشر مبادئهِ هناك، إلا ان نداءاتهُ لم تلقَ أُذُناً صاغية إلا من رجُلٍ عاملي كركي كان يسكنُ تلك المدينة المُقدسة الزاخرة بكمٍ هائلٍ من العُلماء، فاستجاب لدعوة الشاه إسماعيل وتوجه الى فارس، وهو يحملُ عقليةً كبيرة، وأمالاً واسعة يرجو تحقيقها، وبهجرتهِ هذه انفتحَ باب الهجرة العاملية إلى فارس على مصراعيه، وبدأ عصرٌ جديد في الدولة الصفوية حيث شهدت مُدُنها حضوراً عُلمائياً عربياً فاعلاً (الحسون، مصدر سابق: ٤٠٥).

لا شك أن التوق إلى تأسيس دولة شيعية تبني نظامها على مُقررات خطاب آل البيت عليهم السلام كان حُلُماً يُراودُ الكركي، حين شاعت أخبار إعلان إسماعيل الصفوي عند تأسيس دولته المذهب الشيعي مذهباً رسمياً وحيداً للبلاد، مما حدا بالكركي إلى الهجرة إلى فارس؛ لتحقيق ما يصبو اليه وارجاع المجد الضائع للمذهب الشيعي جراء هيمنة مذهب العامة لسنين عدة على مراكز القرار، لا سيما في الدولةِ العثمانيةِ المُدَّعيةِ بانها الراعي الرسمي للخلافة الاسلامية، والحكم القائم على مبادئ الرسالة المُحمدية، على أن يجري ذلك وفق مبادئ آل البيت عليهم السلام القائمة على المُحاججة بالدليل وإقناع الخصم لا على قوة السيف.

ولم تُسعفنا المصادر التي ترجمت للكركي بتاريخ هجرتهِ إلى فارس إبان حُكم إسماعيل الصفوي إلا بالنزر اليسير من الأخبار التي تضاربت، وعلى العموم فقد قيلَ أن دخولهُ زامنَ وقعةً تاريخيةً معروفة في التاريخ الفارسي، وهي فتح الشاه إسماعيل الصفوي لمدينة هُراة وقتلهِ شيخ الاسلام فيها المولى سيف الدين أحمد بن يحيى بن سعد الدين التفتازاني، وهذا ما نص عليه الميرزا عبد الله أفندي الاصبهاني حين قال: ((ويلوحُ في بعض التواريخ الفارسية ان الشيخ دخلَ بلاد العجم في زمن سلطنة السلطان شاه إسماعيل أيضاً، ودخل على هُراة في سنه غلبة السلطان المذكور على شاهي بيك خان ملك الأوزبك، وذلك بعد ظهور دولة شاه إسماعيل المذكور بعشرِ سينين، وان الشيخ علي المذكور دخل هُراة بعد دخول السلطان شاه إسماعيل المذكور بهُراة في تلك السنة)) (أفندي الاصبهاني، ١٤٠٣: ٣/٤٤٥).

وقد تتبع بعض الدارسين المصادر التاريخية الفارسية التي ترجمت للشاه إسماعيل الصفوي وذكرت حروبهُ ورأى انها قد أجمعت على أن الشاه إسماعيل الصفوي دخل مدينة هُراة في العشرين من شهر رمضان سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) ويُحتمل أنهُ الوقت الذي قُتلَ فيه التفتازاني، فيكون دخول الكركي إلى فارس في أواخر هذه السنة واستقرارهِ فيها وبدأ حياتهُ العادية ونشاطهُ في مطلع العام

(٩١٧هـ/١٥١١م) (الحسون، مصدر سابق: ٤١٤)، وتدلُ مؤشرات تاريخية مُتعددة على أن الكركي استقر في مدينة مشهد المُقدسة في هذهِ السنة، وبدأ بتأليف بعض رسائلهِ فيها، ففي العاشر من شهرِ جُمادى الآخرة إنتهى من تأليفهِ (الرسالة الجعفرية)، وفي السادس عشر من شهرِ ذي الحجة انتهى من تأليف رسالته (نفحات اللاهوت)، وأما المُدة التي قضاها الكركي في بلاد فارس إبان عهد الشاه إسماعيل الصفوي فتُقدر بسنتين أو ثلاث سنوات، لان آخر تاريخ عُثرَ عليه دلَّ على وجود الكركي في بلاد فارس بين سنتيْ (٩١٨هـ و ٩١٩هـ/١٥١٢م و ١٥١٣م) إذ كان الكركي موجوداً في تلك الفترة في منطقة سُلطانية التابعة لزنجان (الحسون، مصدر سابق: ٤١٤-٤١٥).

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضاها الكركي في فارس، فضلاً عن اختلاف التوجه بينه وبين الشاه، بحُكمِ طبيعتِهما التي تناقضا فيها، فالشاه إسماعيل لا يعرف سوى منطق السيف والكركي لا يعرف سوى منطق الحوار الهادئ، والدعوة لله بالحكمةِ والموعظة الحسنة، فقد قام الكركي في هذه المدة الوجيزة بنشاطاتٍ سياسيةٍ كان لها أثرٌ كبيرٌ في توجيه سياسية الدولة إبان حُكم الشاه اسماعيل الصفوي، ولعلَّ أهم هذهِ النشاطات السياسية المبنية على الخِطاب السياسي المُعتدل الرافض لخِطاب الإقصاء المُتبع من لدن الشاه إسماعيل الصفوي آنذاك تصريحهُ على أثر حادثة قتل التفتازاني بعد دخول هُراة، إذ قال بعد اذ لامهم كثيراً على ذلك: ((لو لم يُقتل لامكن ان نتباحث معهُ في مسائل الخلاف فاذا أقمنا البراهين والحُجج على ما نقولهُ أمكن ان يكون ذلك سبباً لهدايةِ تلك البلاد)) (محسن الامين، ١٩٨٣: ٢٠٩/٨).

فهذا التصريح على إيجازهِ يكشفُ عن أمورٍ مهمة تُسهم في قراءة شخصية الكركي السياسية في عهد الشاه إسماعيل الصفوي أهمها: أن مُجرد التصريح في حضرةِ سُلطانٍ جائر هي شجاعة لا يتحلى بها كثيرٌ ممن ينصاعون لأوامر السلطان، فالاعتراض على الشاه الذي يتبنى سياسة القتل منذُ بداية تأسيس دولتهِ يَشي بالمنزلة التي كان يتمتع بها الكركي آنذاك، ويُضمر هذا التصريح _على إيجازهِ_ خطابين مُتناقضين يكشفان عن سير الاحداث السياسية إبان تلك الحقبة هما خطاب الاعتدال للكركي وخطاب الإقصاء للشاه إسماعيل الصفوي، وهما يتصارعان ثم يَغلب خطاب الكركي الخطاب المُضاد، وبطريقةٍ سلميةٍ مُقنعة تُقنع الآخر، وان كان مُتعسفاً جباراً، وعلى الرغم من قلة النصوص التأريخية التي تكشفُ عن مكانة الكركي في عهد إسماعيل الصفوي إلا أننا يُمكن أن نستشف من خلال هذا التصريح أنه كان مُقرباً منهُ، وكان يحظى بصلاحيات واسعة تمكِّنهُ من التصريح برأيهِ دون خوف، على الرغم من الظروف الاستثنائية في بداية نشأة الدولةِ الصفوية، فيما يبين هذا التصريح تاريخ العلاقة بين الشاه إسماعيل الصفوي، وبين الكركي الأمر الذي يدل أنه كان على صلةٍ قوية بهِ

قبل قدومه إلى بلاد فارس، إذ ليس من المنطق أن يُدلي برأيهِ في حضرةِ سُلطانٍ جائر لا يعرفُ للعلمِ سبيلاً.

وقد علقَ محمد الحسون على هذه الحادثة قائلاً: ((ان لهذهِ الحادثة دلالتُها الواضحة على ما اشرنا إليه من عقليةٍ جديدة، حملها الكركي إلى إيران، وشخصيةٍ قوية قادرة تتمتعُ بثقةٍ كبيرةٍ في النفس، وأراها تصلحُ مفتاحاً لدراسة الرجُل في ميدانِ عملهِ الجديد، ويلوحُ لي ان هذا الموقف الشجاع والبعيد النظر قد ترك اثرهُ بالشاه إسماعيل _ولو لفترةٍ محدودة_ فالمُتتبع لتاريخهِ من بعد يُلاحظ اعتدالاً لم يكن يتمتع بهِ من قبل، هكذا استطاع الكركي أن يدفع الشاه إسماعيل الى الموقع الذي صمم على العمل من خلالهِ، ولا مفرَ لنا من أن نتصور أن الشاه قد أطلقَ يدهُ في العمل)) (الحسون، مصدر سابق: ٤١٦).

وهذا امرٌ طبيعيٌ فرضتهُ الظروف الجديدة التي حاولَ الشاه إسماعيل الصفوي أن يُحيط نفسهُ بها ويُغلّب العلم والعقل على العاطفة والسيف، وأن كان قد جعلُها غطاءً سياسياً لتثبيتِ دعائم دولتهِ بعد أن هيمنَ عسكرياً، وقضى على الخصوم، وهي فترةٌ تمرُّ بها الدولة الناشئة، بعد أن تُرسِّخ جذورَها، وتقطع جذورَ أعدائها، وعلى الرغم من ضآلة ما وصلنا من أخبار لا ترسمُ صورةً واضحةً للنشاط السياسي الذي خلفهُ الكركي في تحركاته إبان عهد الشاه إسماعيل الصفوي، إلا أن نمطاً من النشاط الفكري والعلمي كان قد بدأ بالظهور، منذُ أن أطلقَ الشاه يدهُ للعمل العلمي وهو _بلا ريب_ تأسيسٌ يحتاجهُ النشاط السياسي، فكلُّ حركةٍ سياسيةٍ تحتاج إلى أرضيةٍ فكريةٍ عقائديةٍ رصينةٍ، وقاعدةٍ جماهيريةٍ تكسبُها من خلال هذه الارضية الفكرية، لتبُث بعدها خطابها السياسي، ويلقى مقبوليةً لدى الجميع، وهذا ما نظنُّ أن الكركي قد عمل على تحقيقهِ في عهد الشاه إسماعيل.

باشرَ الكركي في تطبيق أفكارهِ وخُططهِ بعد أن اتخذ من مدينةِ كاشان معقل الشيعة العريق مقراً لهُ وصارَ يوجهُ منها النشاط الديني في فارسِ كُلها، فأمر أن يُفرد في كُلِّ بلدٍ وقريةٍ إماماً، يُصلي بالناس ويُعلمُهم شرائع الدين، وهذا يعني انه وضع خطة كاملة لنشر التعليم الشيعي شملت بلاد فارس كُلَّها، وكان يُشرف عليها بنفسه، مُتنقلاً من بلد لآخر، بل كان يقوم بنفسهِ بتدريس كبار رجال الدولة، وكان يُنفقُ سبعين الفَ دينار سنوياً على الطلبة وهو مبلغٌ هائلٌ جداً في تلك الايام، يدلُ على ان الكركي كان على درجةٍ عاليةٍ من التمكُن والاستقلال في مواردهِ المالية، كما يدلُ على اهتمامهِ البالغ بأعداد وتدريب أكثر عدد مُمكن من الفقهاء الشيعة (الحسون، مصدر سابق: ٤١٧).

وقد لخص أحد الدارسين أهم الأعمال التي قام بها الكركي في عهد الشاه إسماعيل الصفوي بنقاطٍ منها: تقوية الأركان النظرية للتشيُع الصفوي الحديث في بلاد فارس، وتأسيس الحوزات العلمية في

بعض المدن الفارسية كأصفهان وكاشان وقزوين، وإعداد الطلبة الذين يقع على عاتقهم نشر العلوم والمعارف الدينية بين الناس (حسيني زادة، مصدر سابق: ٧٢)، ويبدو أن أهم نشاط سياسي للكركي في عهد الشاه إسماعيل الصفوي نَتَجَ عن مواجهتهِ المباشرة للمسائل السياسية في عصره، مما أدَّى إلى تألُق الفقه السياسي، واكتسابهِ رونقاً جديداً لم يكن معهوداً عند العُلماء السابقين، وقد برزت كثيرٌ من نشاطاتهِ السياسية في رسائله التي بيّنَ في بعضها مواقفهُ من التحولات السياسية، وقد قَدمَ للحكومة الصفوية جُملة مُصنفات بناءً على طلب وجهاء الصفوية وكبارهم، ولعلَّ أظهر مثال على ذلك رسالتهُ (نفحات اللاهوت) ففي بدايتها يذكرُ أن الهدف من تدوين هذه الرسالة مساعدة الحكومة الصفوية (حسيني زادة، مصدر سابق: ٧٢-٧٣).

ويبدو مما تقدم أن مُعظم النشاط الذي كان يقوم به الكركي مُنصبٌّ على الجانب الفكري والعلمي، إلا أننا نتلمسُ بعض الإشارات التي تكشفُ عن حقيقة نشاط الكركي آنذاك ومنها قضية اشرافهِ المُباشر على تدريس كبار رجال الدولة، فضلاً عن تصنيف الكتب والرسائل لهم، وهذا يكشفُ عن الاثر الفاعل للكركي على الدولة الصفوية الناشئة التي اعتمدت على الحِراك الديني؛ لشرعنة سياستِها وترسيخ دولتها.

وبعد كُل هذا النشاط يترك الكركي فارس فجأةً ويعود الى العراق، ولابد من الإشارة هنا إلى أن الكركي لم يترك فارس مُختاراً؛ لأنه لم يجتز المراحل الأولى من خطته الواسعة التي وضعها لنشر مذهب آل البيت عليهم السلام في فارس، وكُتب التاريخ تحُدثُنا عن أحداثٍ هامة وقعت آنذاك كغدر الصدر الكبير غياث الدين ابا محمد الاسترابادي بالكركي، ووقوف الامير غياث الدين منصور الدشتكي الشيرازي بوجههِ، عندما أراد أن يُغير اتجاه القبلة في بعض قُرى فارس، فضلاً عن أن الشاه إسماعيل الصفوي لم يمنحهُ منصباً دينياً في دولتهِ، وهناك أدلةً واضحةً تدلُّ على ان للشاه إسماعيل دوراً هاماً في إخراج الكركي من بلاد فارس، فهو قد طلبهُ من العراق لكي يستعين به على ترسيخ قواعد دولتهِ تلك لا لكي يكونُ قوةً تتألفُ من مجموعة من الفُقهاء في مقابل القوة الحقيقية التي يعتمدُ عليها، وهي رجال الفرقة الصوفية المعروفة بالقزلباش، وقد صرح المؤلف الفارسي حسن بك روملو المُعاصر للكركي بأن الرخصة قد خرجت للكركي في التوجه إلى العراق، وهذه الرخصة في حقيقتِها تعبيرٌ مُلطّفٌ عن الابعاد، وأخيراً توجه الكركي إلى العراق، وسكن مدينة النجف الأشرف ما يُقارب ست عشرة سنة، من سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) وحتى منتصف سنة (٩٣٦هـ/١٥٣٠م) حين غادر العراق متوجهاً الى بلاد فارس ثانيةً بصُحبة الشاه طهماسب الصفوي بعد دخولهِ بغداد في الرابع والعشرين من شهر جُمادى الأولى من السنةِ نفسها (الحسون، مصدر سابق: ٤١٩).

ويعزو أحد الدارسين الفارسيين المُعاصرين سبب خروج الكركي من فارس مستعيناً بالحوادث التاريخية آنذاك الى سببين: الأول، إنه لم يكن مرتاحاً لاسيما بعد معركة جالديران التي انتهت بانتصار العثمانيين ومصرع جماعة من العُلماء، فضلاً عن ضُعف الشاه إسماعيل الصفوي بعد المعركة وعدم اكتراثهِ بالأمور السياسية والثقافية، والسبب الآخر اصبح (القزلباش) رجال الفرقةِ الصوفيةِ التي يعتمد عليها الشاه إسماعيل الصفوي اكثر تمرداً وجرأةً من ذي قبل في مواجهة مُنافسيهم، وازدادت حِدة جدالهم لعُلماء الشيعة كما أنهم أخذوا يَعدُّون العُلماء العرب أمثال الكركي أعداءً لهم؛ لان حماية البلاط للعُلماء ودعمهُ لهم كانت تتم على حساب إضعاف نفوذ القزلباش (حسيني زادة، مصدر سابق: ٧٣-٧٤).

إن وجهة النظر الثانية لهذا الدارس قد تكون مقبولة أكثر من الأولى لأن الصراع حول السلطة في دولةٍ ناشئةٍ أمرٌ مفروغٌ منهُ، لكن عدم ارتياح الكركي لخسارة الشاه إسماعيل الصفوي في معركة جالديران مع العثمانيين لا يُمكن ان يَنهض سبباً مُقنعاً يدفعهُ الى المُغادرة نحو العراق، وأغلب الظن أنَّ هذا الدارس أراد ان يُبرِّئ ساحة الشاه إسماعيل الصفوي، فلا يُشير إلى حقيقة تاريخية تقول بصدورِ أمرٍ يأمر فيه الكركي بالمُغادرة الى العراق، كما إن الأثر الذي تركهُ الكركي في الشاه إسماعيل الصفوي يقع في صميم العمل السياسي، لأن الشاه كان رأس السُلطة في بلاد فارس، والآمر الناهي فيها، فالسيطرة فكرياً على هرم السُلطة يتيح للكركي السيطرة على مصدر القرار، وتوجيه خِطاب السُلطة الوجهة الصحيحة، وهذا ما حصل فعلاً كما في حادثة مقتل التفتازاني التي مرَ ذكرُها.

لقد تهيأت للكركي ظروف سياسية في عهد الشاه _على الرغم من قصر المدة التي قضاها هناك_ مكّنتهُ من أن ينشر خِطابهُ الشيعي المُعتدل، ويؤثر في مراكز السلطة والقرار، ويحاول أن يُعيد بناء خِطابَها بالصورة التي تكون فيها توافقية، تتعامل مع بقية المذاهب تعاملاً علمياً يصدرُ عن العقل، ويستند على الدليل، لاحتواء أتباعها، ولا يقوم على العُنف والدم، كما كان شائعاً، وكان من أهم هذه الظروف تبنِّي الشاه إسماعيل الأول المذهب الشيعي، وجعله مذهباً وحيداً في البلاد، واستعانته بالعُلماء الشيعة، وإفادتهِ من خبراتِهم في نشر هذا المذهب في عموم بلاد فارس آنذاك، وهي مهمة محفوفة بالمخاطر تحتاج إلى حِنكة سياسية لأقناع الآخر بأحقية خطاب المذهب الجديد الذي حاول الشاه نشره.

ثانياً. نشاط الكركي في عهد الشاه طهماسب (٩٣٠-٩٨٤هـ/١٥٢٤-١٥٧٦م):

خلفَ طهماسب أباهُ إسماعيل الصفوي ولهُ من العُمر عشر سنوات، وجلس على العرش في اليوم الذي توفيَ فيه والدهُ، ونظراً لصغرِ سنهِ كانَ طبيعياً أن يتولى زُعماء القزلباش مَهمة إدارة الدولة، وفي مثل هذا الظروف تتضارب المصالح، وتتعدد الآراء، ويجري التنافُس بين الأمراء من أجل التفرُد بالسلطة، وقد أسهم الشاه إسماعيل الاول في نشوء هذا الظاهرة بفعلِ اعتمادهِ كُلياً على فرقة القزلباش في فتوحهِ وإدارة شؤونهِ؛ مما جعلهم أكثر قوة، فامتلكوا الإقطاعات وأغدقَ عليهم الشاه الألقاب الشَرَفية حتى أضحت بلاد فارس تُعرف بمملكة القزلباش، ونتيجةً لتعاظُم نفوذِهم تحولَ الحكم في فارس من حكم يقوم على الولاء للدولة الصفوية والمذهب الشيعي، الى حكم يقوم على التنازُع على السُلطة، وتبدَّلَ الامتثال لنفوذ الشيخ المُرشد الى تنازُع من أجل الاحتفاظ بالمناصب، وشبَ الشاه طهماسب الأول في جو مُشبع بالنزاعات (طقوش، مصدر سابق: ٨٣).

وقد تمكن الشاه طهماسب بعد ذلك من تَحييد أكثر أعدائهِ عن طريق سياستهِ المتوازنة وتسويقهِ للمشكلات الدينية متجهاً الى تشجيع حركة الآداب والفنون، على أنه قد ظهرت لهُ بعض المعوقات الداخلية ومنها الصراعات المُتكررة على السلطة، حتى بين أفراد أسرتهِ فقد ((كان لهُ أولاد كثيرون أبعدَ أكثرهم عنهُ مدة حياتهِ أو عينهم في الولايات القاصية ما خلا حيدر ميرزا، وهو ابنه الثالث ابقاهُ عنده، وأظهرَ لهُ الميل الكثير، فاستولى هذا الامير على خزائن ابيه وعرشهِ، لكنه لم يُحسن التدبير فضاع منه الملك بعد حين بدسيسةِ امرأة ظنَ فيها الأمانَ فعملت على قتلهِ وهي أخت أمير قبيلة جركس)) (مكاريوس، ٢٠٠٣: ١٥١)، لكنه اتصف على الرغمِ من ذلك بقدرة على تحمُل الشدائد والمشاق، فاستقطب طوائف القزلباش لكبحِ جماحهم، والاستفادة منهم للدفاع عن مملكته، وكان هؤلاء قد بدأوا يتدخلون في شؤون الدولة الداخلية، وهو ليس من اختصاصِهم، فأنعم عليهم بالمناصب وأغدق عليهم الأموال والمُمتلكات، وكان يُشتتهُم في أنحاء البلاد لإضعافهم ويسجنُ بعضهم، ويقتلُ البعض الآخر حيناً، ويتجاهل تصرفاتُهم حيناً آخر، وقد تقرب الشاه طهماسب من الرعية وحسَّنَ أوضاعَها وهي التي كانت تُسانده في الدفاع عن المذهب الشيعي ضد الخطر المُتمثل بالمُعسكر السُني العُثماني والأوزبكي، فخفّضَ عنها الضرائب التي أثقلتها، ورعى الشاه الناحية المذهبية، فاتخذ إجراءات متعددة تخدم السياسة الصفوية وتُذكي الحماس الديني في نفوسِ اتباعهِ، وتُرسخ العقيدة الدينية فيهم منها: أنه جمع حولهُ صفوة مُختارة من رجال الدين الذين تفقهوا بالفكر الشيعي، منهم علي المنشار، وخان الشيرازي، والكركي وغيرهم، كما ادعى السيادة بصفة رسمية؛ فقد اطلق على نفسهِ طهماسب الصفوي الحُسيني الموسوي، وذلك بهدف ترويج المذهب الشيعي (طقوش، مصدر سابق: ١٠٩).

ولمّا كانَ الشاه طهماسب على النقيضِ من أبيهِ، إذ كان رجلاً مُتزناً غير مُندفع، يتحلَّى بثقافة واسعة وعناية بالفنون، كما كان مُتديناً ومُلتزماً بأحكام الشرع الحنيف، وقد ورِثَ دولةً مُترامية الأطراف، ما تزال تبحث عن رابط روحي يشدُ رعاياها إلى كيانها السياسي والبيت الحاكم، لذا نجدُ أن الشاه طهماسب قد تطلّعَ إلى الكركي، وبنى عليه الآمال في تحقيق أهدافهِ السياسية الدينية، فأقامَ رابطةً قويةً مع الكركي، حتى قبل أن يتسلم الحكم، ظهرت معالِمُها الواضحة في وقفية ماء الفرات التي حصلت سنة (٩٣٥هـ/١٥٢٩م)، أي قبل سنة من تسلُمهِ الحكم، إذ أسند الشاه طهماسب تولية هذه الوقفية الى الكركي ومدحهُ وأطراهُ فيها بعبارات جميلة، تدلُ على مكانتهِ الرفيعة عنده، وفي سنة (٩٣٦هـ/١٥٣٠م) عندما تسلم الشاه طهماسب الحكم الواقعي في بلاد فارس كان العراق قد خرج من سيطرة الدولة الصفوية منذُ ست سنوات، أذ سيطر عليهِ سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٤م) ذو الفقار رئيس قبيلة موصلو العثمانية الذي اعلن الولاء للدولة العثمانية، فكان أول عمل فكر بهِ طهماسب بعد تسلُمهِ الحكم استرجاع العراق للدولة الصفوية فجهزَ جيشاً قوياً واتجه الى بغداد عن طريق كرمنشاه وحاول في عدة هجمات عسكرية ان يغلبَ خصمهُ وبعد مكيدة وخيانة احتلَّ الشاه طهماسب العراق، ودخل بغداد في الرابع والعشرين من شهر جُمادى الاولى سنة (٩٣٦هـ/١٥٣٠م)، ثم توجه بعد عدة أيام الى زيارة العتبات المُقدسة (لونكريك، ١٩٤١: ٢٣).

ونتيجةً للرابطة القوية التي قامت بين الشاه طهماسب الصفوي والكركي كان طبيعياً أن يُرحِّبَ الكركي بقدوم الشاه طهماسب إلى العراق الذي خلَّصَ العراقيين من سيطرة ذي الفقار، ومن الطبيعي أيضاً أن يلتقي الرجلان في مدينة النجف الأشرف، عندما دخلها الشاه طهماسب زائراً في جُمادى الاخرة سنة (٩٣٦هـ/١٥٣٠م)، لذلك نُلاحظ أن الشاه طلب من الكركي التوجه إلى فارس؛ لإكمال نشاطهِ الذي بدأهُ في زمن والده إسماعيل الصفوي، على أن الكركي في هذه المرة أراد أن يذهب الى فارس وهو يتمتع بصلاحياتٍ واسعة، تُمكنهُ من تطبيق خطتهِ التبليغية الشاملة، والوقوف امام مُعارضيه من رجال الدين والحكومة، ورُبَّما أراد ذلك لاختبار صدق نيّةِ الشاه طهماسب الذي وعدَ الكركي بدعمهِ ومُساندتهِ، لذلك طلب منهُ الكركي إصدار مرسوم سُلطاني يمنحهُ فيه الصلاحيات الكاملة (الحسون، م. س: ١/٤٢٨-٤٢٩).

لا شك في أن الشاه طهماسب قد ترسَّم خُطى أبيه إسماعيل الصفوي في تأييد المذهب، وتقريب العُلماء والمُبالغة في إكرامهم، لكنهُ فاقَ أباه في أن جعلَ أمر المملكة بيد عالم العصر آنذاك الكركي، وقال لهُ فيما قال: أنت أولى مني بالمُلك، لأنك نائبُ الإمام حقاً، وأنا عاملٌ مُنفذ، وكتبَ إلى جميع الولاة وأرباب المناصب بإطاعة الشيخ، والعمل بأوامرهِ وتعاليمهِ، فكان الكركي يُطبق الشرع، ويُقيم

الحدود، كما عيّن الائمة للصلاة والمُدرسين في المدارس والوعّاظ لبث المذهب ونشره (مغنية، ١٩٦٥: ١٢٦-١٢٧)، وقد تهيَّأ للكركي واقعٌ سياسي مؤاتٍ في عهد الشاه طهماسب، ساعدهُ على أن يضع خطتهُ السابقة التي حاولَ تطبيقَها في عهد إسماعيل في موضع التنفيذ الكامل مُستنداً إلى الصلاحيات الشاملة التي منحها لهُ الشاه طهماسب بمراسيم سُلطانية رسمية، لكي يفتحَ لهُ أُفُقاً سياسياً جديداً يخلو من الخصوم؛ لأن منح الصلاحيات السُلطانية للكركي ستجعلهُ في منأى عن ساحة الخصوم الذين أحاطوا بهِ في عهد إسماعيل، حين كان مُجرداً من الصلاحيات، ما خلا بعض الصلاحيات الدينية.

وفي إطار التطور الحاصل في العلاقة بين الشاه طهماسب الصفوي والكركي أصدر الشاه طهماسب مرسوماً كان يُصطلح عليه (بالفرمان)**، وهذا نصهُ مُترجماً الى اللغةِ العربية: ((حيث يبدو ويتضح من الحديث الصحيح النسبة إلى الإمام الصادق(ع): انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فارضوا بهِ حَكماً، فإني قد جعلته حاكماً، فإذا حكمَ بحكمٍ، فمن لم يقبله منه، فإنما بحكم الله استخف، وعلينا ردٌ، وهو رادٌ على الله، وهو على حد الشرك، وواضح أن مخالفة حكم المجتهدين الحافظين لشرع سيد المرسلين، هو والشرك في درجةٍ واحدة. لذلك فإن كل من يخالف حكم خاتم المجتهدين، ووارث علوم سيد المرسلين، ونائب الأئمة المعصومين (عليهم السلام) لا يزالُ كاسمهِ العلي علياً عالياً، ولا يتابعه، فإنه لا محالةَ مردود، وعن مهبط الملائكةِ مطرود، وسيؤاخذ بالتأديبات البليغة والتدبيرات العظيمة، كتبه طهماسب بن شاه إسماعيل الصفوي الموسوي)) (أفندي الاصبهاني، م.س: ٤٥٥/٣؛ الخوانساري، ١٣٩١: ٣٦٤/٤).

يبدأ نص الفرمان بنصٍ تشريعيٍ يعودُ لرمز من رموز آل البيت عليهم السلام، وهي التفاتة ذكية من الشاه لكي يمنح الفرمان مقبوليةً ويُشرعن طرحهُ في ذلك الحين، ليكون الخِطاب السياسي خطاباً مُقترناً بِخطاب الدين والعقيدة والمذهب، وهذا يُدعم أسسهُ، ويقوي أواصرهُ، ويُعزز وجودهُ بين الخِطابات المناوئة الأخرى التي تحاول تفكيك هذا الخِطاب وتقويضه، ويكشفُ تحليل نص (الفرمان) أن الشاه منحَ الكركي سُلطةً دينيةً عُليا، أعطتهُ صلاحياتٍ سياسية واسعة وفاعلة يُمكن لها أن تؤثر في مصدر القرار، وتستبعد المُخالفين، وقد حظيَ الكركي بعد هذا (الفرمان) بمنزلةٍ عاليةٍ، وصلاحياتٍ واسعةٍ، أسهمت في تغيير مسار قرارات الشاه طهماسب الصفوي، وبناء البِنية التحتية

** كلمة فارسية تعني الإرادة الملكية التي تصدرُ من السُلطان بتعيين شخصٍ ما بمنصب أو بإعطاءِ شيءٍ ما. لونكريك، المصدر السابق، ص ٣٧٧.

الفكرية للدولة الصفوية، وإضفاء الشرعية على تلك الدولة فضلاً عن النتائج المُترتبة على توحيد المذهب، ومزج السياسة بالدين وأهمها المُحافظة على وحدة الشعب الفارسي، عِبر توحيد مذهبهِ.

ولا شك في أن هذا الفرمان يُمثلُ خِطاب السلطة المُتأثرة بالعامل الديني، والقائمة على قواعد المذهب المُعتنق آنذاك وهو المذهب الشيعي، وكان الكركي يُمثلُ مركزَ هذا التأثير، وبؤرة الإشعاع الفكرية والعقائدية والسياسية التي تُلقي بِظِلالها على مراكز صُنع القرار واصدارهِ، وتُهيمن على إنتاج الِخطاب السلطوي الحاكم، وتوجههُ الوجهة التي تأسَّسَ عليها مذهبُ آل البيت عليهم السلام، الذي تبنتهُ الدولة الصفوية، بوصفهِ مذهباً أوحداً في بلادِ فارسِ كُلِّها.

ان مجيئ الكركي إلى فارس ثانيةً في سنة (٩٣٦هـ/١٥٣٠م) يختلفُ تماماً عن مجيئهِ إليها سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) أيام الشاه اسماعيل الصفوي؛ إذ أنه في هذه المرة دخلَ بلاد فارس بِصُحبة الشاه طهماسب الصفوي نفسه، وهو يتمتع بصلاحيات منصب شيخ الاسلام في فارس والأقاليم التابعة لها كافة، وفي يدهِ مرسومٌ سُلطاني (الفرمان)، أمر فيه الشاه أتباعَ دولتهِ بإطاعة الكركي، إذ: ((انّ كُل من يُخالفهُ ولا يتابعه لا محال مردود وعن مهبطِ الملائكة مطرود، وسيؤاخذ بالتأديبات البليغة، والتدبيرات العظيمة)) (الحسون، م. س: ٤٣٣/١)، ولعلَّ هذا المرسوم يُشكِّلُ حالةً لا نظيرَ لها سابقاً، في منحِ حاكم دولة هذه الصلاحيات الواسعة لأحدِ رجال الدين، بحيث صارَ هذا البيان في نظر بعض الدارسين أولَ خِطابٍ سياسيٍ في الإسلام قائمٍ على أساس ولاية الفقيه (المهاجر، ١٩٨٩: ١٢٦)

وقد وظّف الكركي هذهِ الصلاحيات الممنوحة لهُ بموجب ذلك (الفرمان) توظيفاً فاعلاً خلال مدة قصيرة، لا تتجاوز الثلاث سنوات، وبوساطة خُطة مدروسة ومُحكمة، عمل بكُلِ جدٍ ومُثابرة على نشر التشيُع في فارسِ كُلِّها، والإشراف المُباشر على الشؤون الدينية فيها، حتى حاز بجدارة لقب (باعث النهضة الشيعية) في فارس (الحسون، م. س: ٤٣٣/١). ولابد من الإشارةِ هُنا الى أنَّ هذه المَهمة هي مَهمة محفوفة بالمخاطر، وذات طريق شائك إذ أن إتحاد الخِطاب السياسي مع الخِطاب الديني يُشكِّلُ قوةً مُنقطعة النظير؛ لأن قوة السُلطة المُتمثلة بالعسكر ستكون مُحَرِّكة بعوامل مذهبية تُعطيها زخماً عقائدياً في تنفيذِ مايطلبهُ رأس السُلطة، وهذا مايمنح تلك السُلطة نجاحاً باهراً شريطةَ أن يكون مُمثل الخِطاب الديني المُتعاون مع السُلطة السياسية مُمثِلاً حقيقياً وشرعياً يعمل على تطبيق رسالة السماء بكُلِ تفاصيلِها، متلما بنتها الشريعةَ السمحاء على يد النبي الاكرم محمد وآل بيتهِ الاطهار، وهذهِ السِمة من أهم السمات التي تحلى بها الكركي بِحسبِ من ترجمَ له، وهنا لا ضير من أن تكون السُلطة السياسية مُلتزمةً بالشرع، وأن كان ظاهرياً؛ لأن قوة السلطة ليست في حاكمِها بقدر ماهي فيمن حولهُ من قادة وجنود، فاذا هيمن المُتشرع الديني على هؤلاء نفسياً وعقائدياً، صارَ

الخِطاب الديني خِطاباً مُشاعاً في تلك البلاد، وهو المُحرك الأكثر فاعلية الذي يُسهم في تثبيت دعائم تلك الدولة ويُحافظ على وحدة أرضِها، ويدفع عنها كُلَّ عدوان، واذا كان العكس أي أن مُمثل الخِطاب السياسي ومُمثل الخطاب الديني يعملان بالظاهر ولا يُطبقان الشريعةَ السمحاء حقيقةً، فان هذا البناء سيكونُ أوهى من بيت العنكبوت.

ولِنستدل على المنزلة الرفيعة والمركز الرئيس الذي كان يتحلى بهما الكركي ودورهُ، وأثر ذلك في نشاطهِ السياسي فلابد لنا من أن نستشهد ببعض النصوص من اهم كُتب التراجم التي ترجمت للكركي لِما لها من أهمية في توضيح صورة شخصية الرجل العلمية والدينية والأخلاقية، فيقول عنه الحر العاملي مانصهُ: ((أمرهُ في الثقةِ والعلمِ والفضل وجلالة القدر وعِظم الشأن وكثرة التحقيق اشهر من ان يُذكر)) (الحر العاملي، ١٩٨٣: ١٢١/١)، وقال فيه مصطفى بن الحسين الحسيني التفرشي: ((شيخ الطائفة وعلامة وقتهِ، صاحب التحقيق والتدقيق، كثيرُ العلمِ، نقيُ الكلامِ، جيدُ التصانيف، من أجلاءِ هذه الطائفة)) (التفرشي، ١٤١٨: ٢٧٦/٣).

ويُترجم لهُ عبد الله افندي الأصبهاني فيذكُر صفاتهِ، وبعض احوالهِ ومنزلتهِ، فيقول: ((الفقيه المُجتهد الكبير، العالم العلَّامة المُلقب بالشيخ العلائي، والمعروف بالمُحقق الثاني، شيخُ المذهب ومُخربِ دين اهل النصب والوصب، شارح القواعد والمُعاصر للسُلطان شاه طهماسب الصفوي ثاني سلاطين الصفوية، وكان قُدس سُره مُعظّماً مُبجلاً في الغاية عند ذلك السُلطان، موقراً في جميعِ بلاد العجم... سافر إلى عراق العرب وأقام بها زماناً طويلاً، ثم سافر الى بلاد العجم، واتصل بصحبة السلطان، وقد عين له وظائف وإدرات كثيرة ... وكتبَ في ذلك حُكماً، وذكر فيه اسمهُ في نهاية الاجلالِ والإعظام)) (افندي الاصبهاني، م.س: ٤٤١/٣).

وقد ترجم لهُ البحراني ضمن رجالهِ: ((هو في الفضلِ والتحقيق، وجودة التحبيرِ والتدقيق، أشهر من أن يُنكر، وكفاكَ إشتهارهُ بالمُحقق الثاني، وكان مُجتهداً صرفاً، أصولياً بحتاً، وقال في مدحهِ شيخُنا الشهيد الثاني _رحمهُ الله تعالى_ في اجازتهِ الكبيرة : الامام المُحقق، نادرة الزمان ويتيمة الأوان...)) (يوسف البحراني، ٢٠٠٨/ ١٤٦).

وقال فيه محمد باقر الموسوي الخوانساري الأصبهاني: ((الشيخ الإمام ومروج الاسلام ومؤسس إعزاز المذهب الحق بأكمل نظام نور الدين ابو الحسن علي بن الحسين بن عبد العلي الكركي العاملي شارح قواعد الأحكام، شأنهُ اجل من ان يحتاج الى البيان، وفضلهُ اوضح من ان يُقام عليه البرهان، كان يُعرف في زمانهِ مرةً بالشيخ العلائي، وتارةً بالمولى المُروّج، وثالثةً بالمُحقق الثاني)) (الخوانساري الاصبهاني، م.س: ٣٦٠/٤).

يتضح من النصوص السابقة منزلة الكركي علمياً وأخلاقياً وسياسياً ودينياً، وهذا الاجماع يكشفُ عن نشاطهِ المُتعدد، ويُدلل على امكاناتهِ في التأثير بالآخر سواء اكان سياسياً ام اجتماعياً ام مذهبياً، لذا نرى ان الشاه طهماسب الصفوي قد فاقَ أباه في تقريب الكركي واستمالتهِ، بما منحهُ من سُلطات مُطلقة، تُطلق يدهُ في شؤون الدولة الدينية وغير الدينية، وهذا راجعٌ إلى فِطنة طهماسب الذي رأى في شخص الكركي ذلك العلم المؤثر والعَلامة الفارقة بين اقرانهِ من عُلماء الشيعة، فعملَ بسياسة ذكية بعد ان وجد ارضيةً خصبة خلفها أبوه حين أشاعَ مذهب التشيُع في بلاد فارس، وهكذا نجح الاثنان طهماسب والكركي في تحقيق أهدافهِما على الرغمِ من اختلاف الرؤى بينهما، فرؤية الكركي مذهبية تهدفُ الى إشاعة مذهب آل البيت عليهم السلام، وتأسيس دولة سياسية قوية تحمي هذا المذهب، بعد ان كان عُرضةً لاعتداءات المذاهب الاخرى، ورؤية طهماسب سياسية بحتة جعلت من المذهب غطاءً شرعياً تسيرُ تحت لوائهِ لتحقيق أهداف سياسية بعيدة المدى تُسهِمُ في تقوية دعائم الدولة الصفوية، وتوسعة مناطق سُلطانِها.

ولِتعاظُم نفوذ الكركي وهيمنتهِ على مصادر القرار في الدولة الصفوية في عهد الشاه طهماسب لجأ الاخير الى اصدار فرمان ثانٍ بتاريخ ١٦ ذو الحجة سنة (٩٣٩هـ/١٥٣٣م) يمنح الكركي صلاحياتٍ جديدةٍ ويقوي شوكتهُ على خصومهِ، وهذا نصهُ المُترجم:

((يا محمد يا علي

صدور أمر ملكي:

حيث إن طلوع تباشير الدولة المتصلة بالأبد، وظهور رايات السعادة والشوكة الرفيعة، اللتان لولا توافُقِهما لم يخط رقم السعادة (باليمُنِ) على صحيفة أحوال السعداء، ولأننا نعلم أن أعلام الشيعة النبوية الغراء– التي بظهور شمسها تزول آثار الجهالة من فضاء العالم والعالمين– من جملة الأركان التي تقوم عليها السلطنة، والقواعد التي يرتفع عليها بناء الخير والسعادة. ونعتبر ان أحياء رسوم شريعة سيد المرسلين، إظهار الطريقة الحقةِ للأئمةِ المعصومين سلام الله عليهم، التي كالصبح الصادق تزيل غبار ظلمة أثار بدع المُخالفين، ومن جملة مقدمات ظهور شمس انتشار العدل، وقامة دين صاحب الأمر. ومما لا شك فيه ان متابعة علماء الدين والانقيادِ لهم والسير على هديهم هو أساس حصول هذهِ الأمنية، ومناط الوصول إلى هذا القصد. فهم الذين بمساعدتهم ونشرهم للدين وصيانة وحفظ شريعة سيد المرسلين، وبهداهم وإرشادهم يستطيع الناس جميعاً النفاذ من مضيق الضلالة إلى ساحة الهداية. ومن يُمنِ افاداتهم الكثيرة البركات تمحى كدورة الجهل وظلمته من صحائف خواطر أهل التقليد، لاسيما في عصر ذي الفيض الغزير والشأن العالي، المختص برتبة

أئمة الهدى عليهم السلام، المتعالي إلى رتبة خاتم المُجتهدين، ووارث علوم سيد المرسلين، حارس دين سيد المؤمنين، قبلة الاتقياء المُخلصين، قدوة العلماء الراسخين، حجة الإسلام والمسلمين، هادي الخلائق إلى الدين المبين، ناصب أعلام الشرع المتين، مَتبوع أعاظم الولاة في الأوان، مقتدى كافة أهل الزمان، مبين الحلال والحرام، نائب الإمام عليه السلام، لا زال كإسمهِ العالي علياً عالياً، الذي بالقوةِ القدسية اوضح مشكلات قواعد المِلّة والشرائع الحقة، بحيث إن العلماء الرفيعي الشأن من كافة الاقطار والأمصارِ، قد مرغوا جباه العجز على عتبة علّوهِ، مفتخرين ومباهين بما استفادوا من مقتبسات أنوار مشكاة فيض أثاره. واكابر اشراف الزمان لووا رأس الطاعة والانقياد إلى اوامر معقل الهداية ونواهيه، معتبرين ان الهداية والنجاة في متابعة احاكمه. وحيث ان الهِمّه العليّه والنّية الشريفةِ القدسّية بكليتّها لإعلاء شأن ذلك الرفيع الشأن وترقية مكانتهِ ورفع رتبتهِ. لذلك فقد قررنا ان يتخذ السادات العِظام الأكابر، والأشراف الفخام والأمراء والوزراء وسائر أركان الدولة من المومى إليه ذي الصفات القدسية مُقتدىً لهم واماماً، وان يقدموا له مراسيم الطاعةِ في جميع الأمور، فما أمرَ بهِ نافذ وما نهى عنه محظور. ومن عزله من المُتصدين للأمور الشرعية في الممالك المحروسة والعساكر المنصورةِ، فإنه معزول، ومن نصبه كان منصوباً، لا يحتاج في هذا النصب والعزل إلى سندٍ آخر، ومن عزله لا يعاد إلى منصبه مالم يُعد نصبه ذلك المتعالي المنقبة... .

تحريراً في سادس عشر شهر ذي الحجة الحرام سنة (٩٣٩هـ).

– كتبه طهماسب–)) (افندي الاصبهاني، م.س: ٣/٤٥٥–٤٦٠).

يشتملُ نص (الفرمان) هذا على فقراتٍ غايةٍ في الأهمية تكشفُ عن الصلاحيات المُطلقة التي منحها الشاه طهماسب الصفوي للكركي، وينقسمُ على ثلاثةِ أقسام، القسم الاول حِجاجي يهدفُ الى بيان اهمية العُلماء في بناء قواعد الدولة، وهو يُهيئ المُتلقين الذين سينتشر بينهم هذا الفرمان للنتيجة المُهمة التي سينتهي اليها، والقسم الثاني ونُسميه بالقسم الإطرائي حيث يخلع الفرمان على الكركي ألقاباً وصفاتٍ كبيرة تُظهرُ عِظَمِ منزلتهُ في الدولة الصفوية آنذاك منها: (الغزير الشأن، المُختص برتبة ائمة الهدى، المُتعالي الى رتبة خاتم المُجتهدين، وارث علوم سيد المُرسلين، حارس دين سيد المؤمنين، قبلة الاتقياء المُخلصين، قدوة العُلماء الراسخين، حُجة الاسلام والمسلمين، هادي الخلائق الى الدين المُبين، ناصِبُ اعلام الشرع المتين، متبوع اعاظم الولاة في الاوان، مُقتدى كافة اهل الزمان، نائب الامام عليه السلام)، ولا شك في ان خلع هذا الصفات يُعدُ بمثابةِ تبريرٍ وشرعنةٍ لاصدار الحُكم السُلطاني الذي منحَ الكركي هذه الصلاحيات الواسعة وهي تُهيئ أيضاً لبؤرة الاهمية

التي يقومُ عليها هذا الفرمان والمُتمثلة بالقسم الثالث والاخير منه والذي اسميناهُ بالقسم الالزامي، ولعل من اهم صفات هذا القسم هو شيوعُ النفس السُلطاني الحادْ الذي يُلزم كُل القائمين على الحُكم من قادة وولاة بالانصياع الى المُقررات التي قررها هذا (الفرمان)، ومن اهم الفقرات التي تكشفُ عما أشرنا اليه من الإلزام مانصهُ: ((فقد قررنا ان يتخذ السادات العِظام الأكابر والأشراف الفخام والأمراء والوزراء، وسائر أركان الدولة، من المومى إليه ذي الصفات القدسية مُقتدىً لهم وإماماً، وأن يقدموا له مراسيم الطاعةِ في جميع الأمور، فما أمرَ بهِ نافذ وما نهى عنه محظور. ومن عزله من المُتصدين للأمور الشرعية في الممالك المحروسة والعساكر المنصورةِ، فإنه معزول، ومن نصبه كان منصوباً، لا يحتاج في هذا النصب والعزل إلى سندٍ آخر، ومن عزله لا يعاد إلى منصبه مالم يُعد نصبه ذلك المتعالي المنقبة)) (الحسون، م.س: ١/٤٦٠-٤٦١).

وبهذا المرسوم السُلطاني ذي اللغة الإلزامية أصبح الكركي يتمتع بسُلطات مُطلقة تجاوزت السُلطات الدينية الى صلاحيات سياسية كانت في السابق من مهام الشاه فقط، وهذا رُبما يُفسرُ لنا المكانة الكبيرة والمنزلة الرفيعة التي حازَ عليها الكركي، فضلاً عن أنه يكشفُ عن حاجة السُلطة السياسية للدولة الصفوية آنذاك الى قوة اخرى غير القوة العسكرية للاستناد عليها وتقوية دعائم الحُكم في الداخل لان تصفية الخُصوم في الداخل وتنقية الاجواء ستُهيئ للهيمنةِ الخارجية، فلا غرابة بعد ذلك في ان يُمنح عالمٌ دينيٌ كُل هذه السُلطات والصلاحياتِ في دولةٍ سياسيةٍ، كانت لها سطوةٌ واسعةٌ في المنطقة.

لقد أتاحت هذا الصلاحيات المُطلقة للكركي فُرصةً سانحة لتحقيقِ أهدافهِ وتطبيقِ خِطابهِ على ارض الواقع بعد ان لم تسنح لهُ الظروف لتحقيقهِ في عهد إسماعيل الصفوي، لذلك نجدهُ قد وضعَ خُطةً مدروسة لتحقيقِ كُلِ ذلك، ونشر المذهب في كُل ارجاء الدولة الصفوية ومايتبعُها من مناطق مجاورة، ويُمكن لنا ان نُلخص نشاط الكركي في عهد الشاه طهماسب الصفوي بعد صدور (الفرمانين) الاول والثاني بالنُقاط الاتية:

أولاً. نشر الاحكام الشرعية وترويجها طبقاً لمذهب آل البيت عليهم السلام وذلك بوساطة مجموعة من العُلماء؛ إذ عين في كُل مدينةٍ رجُلَ دينٍ يقوم بكل مايتعلق بالامور الشرعية فضلاً عن النظر في المشاكل الاجتماعية.

ثانياً. تأسيسهُ للحوزات العلمية المبنية على أُسس مذهب آل البيت عليهم السلام وقواعده، فضلاً عن تشجيعهِ لحركة التأليفِ والترجمة، إذ ان مهمة نشر تعاليمِ آل البيت عليهم السلام تتطلب تدريب مجموعة من العُلماء على النشر والتبشير عِبر التعليم في الحوزات او التأليف والترجمة.

ثالثاً. تعليم الحُكام والمسؤولين التابعين للبلاط أحكام الشرع الحنيف، وحثهم وترغيبهم على تطبيق هذه الأحكام بين الناس، وعدم الخروج عنها، وعدم ومُعاملة الرعية مُعاملةً جائرة.

رابعاً. عزلْ بعض المسؤولين على الشؤون الدينية من مناصبِهم وابدالِهم بمن هو افضل منهم لعدمِ تطبيقهم الأحكام الشرعية المبنية على مذهب آل البيت عليهم السلام.

خامساً. وضع الكركي خُطةً لمُحاربة الفساد السائد آنذاك، وقد استعان بتطبيقِها بالشاه طهماسب الصفوي الذي عُدَّ من اكثر سلاطين الصفويين تديُناً فأمر الشاه بأغلاق أماكن اللهو والطرب وشرب الخمور وغير ذلك، وقد أصدر مرسومين في ذلك يقومان على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر.

سادساً. أسهم في الحَدِ من قوة الفرقة الصوفية المعروفة بالقزلباش وصلاحياتِها، من خلال تشجيع الشاه طهماسب الصفوي على مُحاربتهم، ونبذِ طُرُقِهم، ومنع القصاصين الذين يجولون في طولِ البلاد وعرضها لنشرِ قُصصٍ اسطورية ومعاجز كاذبة عن رجال الصوفية، وقد أصدر الشاه دستوراً حكومياً يمنع ذلك ويُعاقب مُرتكبيه، فضلاً عن ان الكركي قد عملَ بشكلٍ دؤوب على توعية الناس وايقافهم على حقيقة الصوفية وفضحِ مُخالفاتهم للشرع.

بعد هذه النشاطات الاجتماعية والدينية والسياسية التي قام بها الكركي في ظلِ غطاءٍ رسميٍ من السلطةِ آنذاك آلت الامورُ بهِ الى أن يُغادر بلاد فارس مُتجهاً نحو العراق، فقد اختلف الدارسون في حقيقة اسباب هذهِ المُغادرة، إذ يعتقد حسن عباس نصر الله ان الكركي غادر فارس ودخل العراق بِمهمةٍ سياسيةٍ تقضي بالدعوةِ للدولةِ الصفوية، ولإقامة دولة الاسلام على وفقِ مبادى مذهب آل البيت عليهم السلام، ولاسيما بعدما اصبح يتمتع بصلاحياتٍ واسعة حين فَوَضَ اليه الشاه كل الامور، ولقبهُ نائب الإمام، وأطلق يدهُ في شؤون الدولة، ولم تذكر المصادر حصول جفوةٍ بين الرجلين، بل تؤكد إخلاص الشاه للكركي حتى بعد وفاتهِ، إذ عيَّن خَتنهُ وهو بهاء الدين العاملي خليفةً لهُ (حسن نصر الله، ١٩٨٦/ ١٤٥).

ويردُ عليه محمد الحسون قائلاً: ((واني اقفُ موقف المُتحير، كيف يذهب اليه مؤلفٌ كتب عن كرك نوح، وادعى انه احاط بكُلِ ما يتعلق بها وبرجالِها، ولو اجالَ هذا الدكتور النظر في امهات الكتب التاريخية، وتعرَّفَ على حجم المُعاناة التي لاقاها الكركي في ايران لغير رأيهُ حتماً، ولو قرأ ما ذكرهُ المؤلف الايراني حسن بيك روملو حيث صرّح بان الرُخصة قد صدرت من الشاه طهماسب للكركي بالتوجه الى عراق العرب، لَمَا ادعى عدم حصول جفوةٍ بين الرجُلين)) (الحسون، م. س: ١/ ٤٥٢).

ثم يطرح الحسون رأيهُ الخاص في ذلك فيقول: ((اننا نجزِمُ بان الكركي لم يترك ايران ويتوجه الى

العراق باختيارهِ، وهو يجني يومياً ثمارَ عملهِ الدؤوب، ويُشاهد نجاح خُطتهِ التبليغية، التي رسمها وبذل في تطبيقها كُل ما في وسعهِ، وتحمَّل من أجلها مصاعب جمة كادت تودي بحياتهِ بل خرج مُكرهاً منها بعد ان تجمعت في وجههِ قوى كبيرة لم تدخر وسيلةً للنيل منهُ، والظاهر ان الشاه طهماسب خشيَ مغبة انفجار الصراع فلجأ الى ابعاد الكركي الى العراق، ويشهد لذلك ان المؤرخ الايراني حسن بك روملو المُعاصر للكركي قد صرح بذلك في كتابه الفارسي ((احسن التواريخ)) الذي انتهى من تاليفِ سنة (٩٨٠هـ)، حيث ربط بين مُحاولة خصوم الكركي نقلُ نشاطِهم ضدهُ من الخفاءِ الى العلن، وبين صدور الرُخصة لخاتم المُجتهدين بالتوجُه الى عراق العرب، هذه الرُخصة هي تعبيرٌ مُلطفٌ عن الإبعاد، وصرَّح بذلك أيضاً المؤرخ الايراني الآخر عبد الحسين الحُسيني الخاتون آبادي (ت١١٠٥هـ) حيث قال في وقائع سنة (٩٤٠هـ): وقد خرجت الرُخصة للكركي للتوجُه لعراق العرب)) (الحسون، م. س: ١/٤٥٢-٤٥٣).

والغالب على الظن أن طَرح حسن عباس نصر الله هو من الطروحات المُبالغة في تمجيد الشاه طهماسب الصفوي والذي تنظرُ اليه على انهُ حامي المذهب والمدافع عنهُ والراغب في انتشارهِ وعلوهِ، لذلك نراهُ يُرجع مُغادرة الكركي بلاد فارس وتوجُههِ نحو العراق الى (المَهَمة السياسية)، لذا فنحنُ نجدُ انفُسَنا اكثرُ ميلاً لرأي الحسون؛ لِمَا فيه من طرحٍ منطقيٍ قائمٍ على الحُجةِ والدليل من خلال استقراء الوقائع التاريخية التي نقلها المؤرخون الفُرس، وهذا بحدِ ذاته يكفي لرجاحةِ رأيهِ لان أهلَ مكةَ ادرى بِشِعابها، فهُم يؤرخون من قلب الحدث لا نقلاً عن احد.

وما يهمُنا من كُل هذا النقاش هو إثبات أن المصلحة السياسية كانت تقتضي الإتكاء على عَلمٍ من أعلام مذهب آل البيت عليهم السلام لتثبيت دعائم دولتهِ، فاذا اصبح وجود هذا العَلَم مثارَ فتنةٍ، ووجودٍ مُهَدِّدٍ، فهُنا يصبح الاستغناء عنهُ هو التصرف السياسي الصحيح على وفق الأعراف السياسية؛ للحفاظ على مُبتنيات الدولة التي كلفت طهماسب الصفوي الكثير لذا فنحنُ نختلفُ مع بعض الدارسين والمؤرخين الذين يُبالغون بوصفِ طهماسب الصفوي وايمانهُ وصفاتهُ الحَسِنة فهو حتى وان زارَ العتبات المُقدسة وأسهم في إعمارها وحافظ على مشروع نشر المذهب في بلاد فارس، فهو يبقى رجُل سياسة تقتضي منهُ أن يَتَلَوَن بين الحينِ والآخر، لذا وجدناهُ يأمرُ بِمُغادرة الكركي وعودتهِ الى العراق؛ وذلك وفقاً للمصالح السياسية تلك.

الخاتمة:

حاولت الدراسة تقديم قراءة موجزة مُتسائِلة تبحث عن اجابات مُقنعة؛ لِتكشُف عن الدور الحقيقي الذي اضطلعَ بهِ الكركي إبَّان تأسيس الدولة الصفوية في عهديْ إسماعيل وابنه طهماسب، وقد خرجت هذه القراءة بنتائج مُتعددة، يُمكن لنا إيجازها بالنقاط الآتية:

١. ان النشاط السياسي للكركي في عهد الشاه إسماعيل الصفوي كان نشاطاً ضيقاً؛ إذ لم تتوفر لهُ الاسباب الكافية التي تُعطيه فُسحةً في التحرك السياسي، وتحقيق اهدافهُ المرجوة.

٢. اتصف الكركي بالشجاعة والإيمان بالقضية التي جاء من أجلها، وقد مكّنهُ ذلك من الاعتراض على خِطاب السُلطة المُتبنى؛ لردع الآخر بالقوةِ والسيف، وقد حاول تغيير مسار هذا الخِطاب منذُ اللحظات الاولى لدخوله بلاد فارس.

٣. نجحَ الكركي في تحقيق بعض اهدافهِ إبَّان عهد إسماعيل الصفوي، على الرغمِ من ضيق الوقت، ومساحة التحرك، وانعدام الصلاحيات السياسية، من نشر المؤسسات الدينية التي اسهمت في توسيع نطاق الحركة الشيعية في بلاد فارس.

٤. لقد توفرت للكركي ظروفٌ مؤاتية في عهد طهماسب الصفوي، مكّنتهُ من ان يُمارس نشاطهُ السياسي والديني بحُرية كاملة، مما جعلهُ يُشكل تهديداً كبيراً للخِطاب المُضاد لِخِطابِ آل البيت عليهم السلام الذي عملَ على ترسيخهِ في بلاد فارس.

٥. كان للصلاحيات المُطلقة التي حازَ عليها الكركي من مصادر القرار والقوة في الدولةِ الصفوية فاعليةٌ كبيرةٌ في تأسيس قاعدة متينة، ينطلقُ منها الكركي لتحقيقِ اهدافهِ في بناءِ دولةٍ قويةٍ، تقومُ على مبادئ آل البيت عليهم السلام.

٦. على الرغمِ من النوايا السياسية المُضمرة في تصرُفات السُلطة الصفوية تجاه الكركي إلا ان سياستهُم اقتضت تقريبه، وإطلاقَ يدهِ في شؤون الدولةِ العامة سياسيةٍ كانت ام اجتماعيةٍ ام دينيةٍ، بوسائلَ رسمية، وبِحُجج راسخة تنطلقُ من مبادئ المذهب الذي تنتمي اليه الرعية عِبر اصدار المراسيم السُلطانية بمنحهِ الصلاحيات الواسعة.

٧. يُعد الكركي بحق باعث النهضة الشيعية في بلاد فارس، ومجدد المذهب ومرسخ الاسس الشرعية للدولة الصفوية، بما قامَ بهِ من نشاط ديني وسياسي واجتماعي كانت لهُ آثارٌ ظاهرة على بِنية المُجتمع الصفوي عِبرَ تغيير المُمارسات السلبية وإحلال المُمارسات الايجابية محلها مُستنداً في ذلك على قوة الدولة وهيمنتِها على مصدر القرار؛ وهذا يجعلُنا نُقرّر أنهُ المؤسس الحقيقي لمبدأ (ولاية الفقيه) الذي تخضع فيه السُلطات السياسية لإرادة عالِم الدين وتُسلّم لهُ مقاليد الحُكم.

قائمة المصادر والمراجع:

١. أسعد حميد أبو شنه، المحقق الكركي وعلاقته بالدولة الصفوية في عهد الشاه اسماعيل الصفوي١٥٠١-١٥٢٦، ((مجلة الكلية الاسلامية الجامعة))، (مجلة)،العدد(١)،٢٠٠٦.

٢. ثقة المُحدثين الشيخ عباس القُمي(ت١٣٥٩هـ)، هدية الاحباب في ذكر المعروفين بالكُنى والالقاب والانساب، ترجمة الشيخ هاشم الصالحي، تحقيق ونشر مؤسسة نشر الفقاهة، (قُم المُقدسة: مؤسسة النشر الاسلامي، ١٤٢٠ هـ ق/ ١٣٧٩ هـ ش).

٣. جعفر المُهاجر، الهجرة العاملية إلى ايران في العصر الصفوي، (بيروت: دار الروضة، ١٩٨٩).

٤. حسن عباس نصر الله، تاريخ كرك نوح، (دمشق: المُستشارية الثقافية للجمهورية الاسلامية الايرانية، ١٩٨٦).

٥. خير الدين الزركلي، الاعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمُستعربين والمُستشرقين، ط١٧، (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٧)، ج٤.

٦. ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، نقلهُ الى العربية جعفر الخياط، (بغداد: مطبعة التفيُض الاهلية، ١٩٤١).

٧. السيد محسن الامين العاملي، أعيان الشيعة، حققهُ وأخرجهُ حسن الامين، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ١٩٨٣) ج٨.

٨. شاهين مكاريوس، تاريخ ايران، (القاهرة دار الآفاق العربية، ٢٠٠٣).

٩. شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي(ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، ط٢، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٥)، ج٤.

١٠. الشيخ محمد الحسون، حياة المحقق الكركي واثاره، (قُم: مطبعة نكَارش، ١٤٢٣هـ)، ج١.

١١. الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي(ت١١٠٤هـ)، امل الأمل، تحقيق السيد أحمد الحُسيني،ط٢، (بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٩٨٣)، ج١.

١٢. العلامة المُتتبع الميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري الاصبهاني(ت١٣١٣هـ)، روضات الجنات في احوال العُلماءِ والسادات، تحقيق أسد الله إسماعيليان،(قم: مطبعة مهر استوار قُم، ١٣٩١هـ)،ج٤ .

١٣. العلامة المُحقق الشيخ يوسف البحراني(ت١١٨٦هـ)، لؤلؤة البحرين في الاجازات وتراجم رجال الحديث، حققهُ وعلق عليه العلامة الكبير السيد محمد صادق بحر العلوم، (البحرين: مكتبة فخراوي، ٢٠٠٨).

١٤. كليفورد بوزورث، الاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، دراسة في التاريخ والانساب، ترجمة حسين علي اللبودي، مُراجعة سُليمان ابراهيم العسكري، ط٢، (الكويت: مؤسسة الشراع العربي، ١٩٩٥) .

١٥. المُحقق السيد مصطفى بن الحسين الحُسيني التفرشي، نقد الرجال، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التُراث،(قُم المُقدسة: مطبعة ستارة، ١٤١٨هـ)، ج٣.

١٦. محمد جواد مغنية، دول الشيعة في التاريخ، ط٢، (النجف الاشرف: منشورات الاعلمي، ١٩٦٥) .

١٧. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية (في ايران)، (بيروت: دار النفائس،٢٠٠٩).

١٨. محمد علي حُسيني زادة، آفاق الفكر السياسي عند المُحقق الكركي، ترجمة الشيخ علي ظاهر، مُراجعة وتنقيح عدنان علي الحُسيني، (قُم المُقدسة: مطبعة مُحمد، ٢٠٠٥).

١٩. موسى بن محمد آل هجاد الزهراني، الدولة الصفوية الاثنى عشرية النشأة والآثار وعوامل الإنهيار، (مكة المكرمة: دار الدراسات العلمية، ٢٠١٦).

الميرزا عبد الله افندي الاصبهاني(ت١١٣٠هـ)، رياض العلماء وحياض الفضلاء، تحقيق السيد احمد الحُسيني، باهتمام السيد محمود المرعشي، (قُم المُقدسة: منشورات مكتبة اية الله العظمى المرعشي النجفي، ١٤٠٣هـ)، ج٣.